روسيا وخصومها

تسعة عشر عاماً مرّ والحقيقة ضائعة

بقلم منا لمياء

لم يتحكم الثراء في موضوع استحكامه في امر النظام السوفياتي وحالة الشعوب الروسية في الوقت الحاضر. فان العلم الحديث ليكاد يحصي عدد الذرّيرات في المجرّة، ويزن اكبر الاجرام ويعين بعدها، ويصف ما في عالم الجوهر الفرد من الوحدات والنفحات، فيريك في الدقيقة المادية مجرّة، وفي الجوهر الفرد نظاماً شمسيًّا. مع ذلك قد عجز العلم والعلماء عن تعيين موقف روسيا ولم يمكن الاتفاق على حقيقة ما هو جارٍ فيها اليوم

امّة معاصرة، تعد ما يزيد عن مائة وخمسين مليوناً، يشغلون نحو سدس اليابسة، وهي ألصق بلدان الدنيا بالعالم المتمدّن (لانها قسم من اوربا)، مع ذلك، قد تضاربت الاقوال في ما هي عليه من يسر او عسر، وشدّة او رخاء، وصعود أو هبوط. فنقرأ المتناقضات عن روسيا ويعسر علينا ان ندرك الموقف الذي ليس فيه مراء

فقد كنت اقرأ في صحف الولايات المتحدة في اميركا المقالات الضافية عن سوء الحال في روسيا، وأن أهاليها في حال فقر أسود، والمجاعة ضاربة اطنابها في انحائها. واذكر جيداً ان احدى المقالات أكدت ان روسيا لا يمكنها البقاء على هذي الحال الى ما بعد مارس سنة ١٩١٩ وانها مهدّدة بالفناء والدمار. وليست الثرايا في ذلك تعين سنة ١٩١٩. ولكن الغرابة كل الغرابة، انهُ بعد مرور ١٧ سنة وبعد ذهاب مئات من الكتّاب والمحققين الى روسيا، بل بمئات مدرسية جمعت عشرات من طلاب المدارس الانكليزية وغيرها، عدا القناصل والصحافيين والتجار والسياح ومن اليهم وقد كتبوا ونشروا وتكلموا عما هو جارٍ تحت سماء روسيا — بعد كل ذلك لا نزال نسمع تضارب الاقوال والآراء في حوادثها اليوم كما كنا قبل ثمانية عشرة سنة

لست اشتراكيًّا بالمعنى الرسمي، ولا شيوعيًّا، ولا اقدر ان اقول هل تحتمل مبادىء الشيوعية النقد او لا، وهل هي على هدى او على ضلال. كل ذلك خارج دائرة موضوعي. فلست محامياً عن الشيوعية ولا خصماً لها. بل انا ناشد الحقيقة، مجايد، نزيه، مخلص اريد ان اقرر الواقع كواقع، لا كما يريد المتحيزون أن يلونوه. بناء على ذلك ارجو ان اثبت في ما يلي بعض

ما عنت عليه في كتاب ظهر حديثاً موضوعه نتائج الحرب العظمى السياسية بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٦، وللقارىء الحكم بنفسه لنفسه هل تستحق هذي الاقوال الاجلال محل القبول او النبذ قصيًّا. واليك بعض ما في ذلك الكتاب بالحرف او بالمعنى. قال: —

صرح ڤيكونت جراي في مجلس اللوردات الانكليزي في ٣ مارس سنة ١٩٢٧ ان حكومة السوڤيات الروسيَّة هي غير قوميَّة. فليست هي روسيَّة بالمعنى الذي فيه حكومة فرانسا فرنسية وحكومة ڤنايا الطاية. ذلك ان تينك الحكومتين والحكومة الانكليزية ايضاً، انما ترمي الى ترقية مصالح قومها، ولا تكترث لمصالح غيرها الاَّ بمقياس تأثيرها في مصالح قومها الخاصة

انقسم العالم منذ سنة ١٩١٧ الى رأسماليين واشتراكيين. واخذ الانشعاب بينهما يتزايد كل عام. وبينما نرى الشقاق والحروب والازمات مخيمة في اجواء الامم الرأسمالية، حتى ان ملايين من عمالها هم بدون عمل، نجد في الوقت نفسه عالم الاشتراكيين في روسيا متمتعاً بالسلام والقوة والنجاح. فالبون شاسع بين سواد ليل اولئك وبياض نهار هؤلاء

هذا الانقسام العالمي الى رأسمالي واشتراكي، هو من احداث العصر. فقد نجحت الثورة الاشتراكية في روسيا، وخابت في غيرها من البلدان كالمانيا وايطاليا مثلاً، فبرزت بهذا التطوُّر مسائل جمة في علاقات الفريقين، اعربت عن ميول كثيرين في البلدان الرأسمالية نحو الاشتراكية واعربت بالحري عن تحقيق النظام الاشتراكي، في امة كبيرة، ذات استقلال تام، وعلاقات كونية، وهو امر لم يسبق له نظير في الدنيا، الاَّ في حالات وقتية استثنائية كما في وقت الثورة الفرنسية مثلاً

ساء الرأسماليين نجاح النظام الاشتراكي في روسيا، فعمدوا الى صد تيارهم بشتى الوسائل فصد السوڤياتيُّون لهم، وصدُّوا هجماتهم، ثم اخذوا يسعون لتأسيس علاقات سلمية ودية مع تلك الامم التي كانت تحاربهم. والسوڤيات يرغبون في السلم، لان كل سنة سلم وراحة، تزيدهم قوة وتأصلاً. والروسية تحصن الاشتراكيين في الدنيا. فمن مصلحة الانسانية أن تستريح من المشاكل العالمية وتتفرغ لترقية شؤونها، ولنشر مبادئها. فقد حل عندها قانون الجماعات برعاية العمال، محل قانون الاقلية من الماليين التي كانت تسود الاكثرية فتستعبدها وتذلها وتسحقها

وقد تسنى للعمال ذلك سنة ١٩١٧ في روسيا. فأحرزوا ذلك الفوز الحاسم بهمة العمال والفلاحين والجنود الحمر. وقبضوا على مقاليد الاحكام، والفوا قوة لم يسبق لها نظير في تاريخ الاجتماع الانساني. انضوى تحت لوائها جماعات الاتحاد السوڤياتي وهم يزيدون عن مائة وسبعين مليوناً (١٧٠٠٠٠٠٠٠) في شرقي اوربا. فهبَّ الرأسماليون في المانيا وايطاليا واليابان وانجلترا واميركا يهاجمونهم، وبذلوا الجهد في قمع الحركة الشيوعية في روسيا. فقاطعوها، وحاصروها، وحاربوها سنة ١٩١٨ بقيادة كولشاك ودنكين وبودينتش نوَّاد القيصر المعروفين. وقد صرَّح

لويد جورج ان انكلترا انفقت في هذا السبيل مائة مليون جنيه ولكنها ومن معها قد آبت بالخيبة وأشار لينين الى ذلك سنة ١٩٢١ قال : —

لقد عجز البورجوازيون عن سحقنا ، مع ان قواتهم تبلغ مائة ضعف ما لنا ، وسبب عجزهم هو نشوب الثورة الاشتراكية في كل اصقاع الدنيا . فوضع ذلك حدًّا لاطماع الرأسماليين فيما على ان الحرب الاقتصادية ما زالت . وهي لا تقل عن الحرب المادية خطورة وتأثيراً . يضاف الى ذلك تراث الحكم القيصري الغاشم ، وجهل الامة ، وفقرها المدقع ، وقلة المواد الخام والآلات ، واضطرارنا الى الاعتماد على الموارد الخارجية زد على كل ذلك ويلات الحروب سبع سنين متواصلة ، منها اربع سنين في الحرب الخارجية ، وثلاث في الحرب الاهلية . وفوق الكل نطاق الحصر الذي ضربهُ علينا دول الغرب . فكان امام النظام الاشتراكي عمل شاق ، هو مجابهة كل ما ذكر من الصعاب ، وهو لا يزال في مهدهِ . ولكنهُ تغلب على الكل وفاز بالبقاء . كل ما ذكر انما كان الخطوة الاولى في حياة الاشتراكية في روسيا . والخطوة الثانية هي التنظيم الاقتصادي الجديد الذي وضع اساسه سنة ١٩١٨ ، وحالت الحرب الاهلية دون تطبيقه الى سنة ١٩٢١ ، ولم يدرك الرأسماليون فضل ذلك النظام حتى تجلّى لهم في شروع الاعوام الخمسة . فكان اول ما نزعت به حكومة السوفيت هو أنها حصرت قواتها الاقتصادية في ايدي العمال . والمراد بتلك القوات البنوك والصناعة والتجارة الخارجية والمصائد ووسائل النقل وتركت للافراد التجارة الصغيرة لتتناءل امام تيار التجارة القومية العظيم . فتمكنت بذلك من صون جميات الزراعة والتجارة ، وحفظت مكانها في الخافقين .

ولما كان غرض الماليين قهر الاشتراكية باستخدام الذرائع المالية وجدت حكومة السوفيات نفسها مضطرة للقيام لصد ذلك التيار الجارف . فأبت اعطاء امتيازات ، لاية شركة اجنبية في اصقاع روسيا . جاء في تقارير السر روبرت هورن الوزير الانكليزي سنة ١٩٢٤ : ان افضل الذرائع لسحق البلشفية هي اختراق بلادها بالانظمة الاقتصادية . وجاء في مذكرات سفير انكلترا في برلين بتاريخ مايو سنة ١٩٢٣ : روسيا في حال الدمار التام . ولا يمكن انشاء تجارة رابحة فيها الا بعد مرور سنين

واشار مستر بلدون بشغل اسواق روسيا بالتجار الالمان على ان المانيا تتمكن بذلك من وفاء ما عليها من اقساط الحرب . وظلت الآمال معلقة بسقوط روسيا اقتصاديًّا ، وخضوعها لشوكة الرأسماليين ، الى سنة ١٩٢٤ . جاء في الاوبزرفر بتاريخ ٢٨ دسمبر سنة ١٩٢٤

لا يمكن استمرار النظام الحالي في روسيا زمناً طويلاً . ومهما يكن من امر الامر السوفياتي فلا بد من تحوله رأسماليًّا في خلال بضع سنوات . على ان هذي الآمال قد خابت كما اثبتت ذلك مجلة ايكونومست ، قالت : بعد مضي تسع سنوات لا يزال النظام السوفياتي في روسيا غير ممسوس

لم يبدُ اي دليل على ضعف التجارة القومية في روسيا. وقد تضاءلت التجارة الفردية امامها. فكان عدد العمال في ورش الحكومة سنة ١٩٢٦ نحو ٢٧٠٠٠٠٠ عامل بازاء ٣٦٠٠٠ عامل في ورش الافراد. وكانت وسائل النقل جميعها — خطوط المواصلات من شركات بحرية وقطارات حديدية وطائرات — في يد الحكومة

بدأ مشروع الاعوام الخمسة سنة ١٩٢٨ وانتهى سنة ١٩٣٢ بفوز باهر. فاستفزّ فوز الشيوعية هذا امم الرأسماليين في كل انديا. لانهم رأوا أن روسيا قد بلغت ذروة الصناعة. قال ستالين سنة ١٩٣٣ : أن منتجات روسيا بلغت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب، وضعفي ما كانت عليه سنة ١٩٢٨. مع ان منتجات انكلترا بلغت في الوقت الحاضر ٧٥ ٪ ما كانت عليه قبل الحرب (سنة ١٩١٣) و٨٠ ٪ ما كانت عليه سنة ١٩٢٨ وشبهها تقريباً المانيا والولايات المتحدة الاميركية. وقد أُنشئت مصانع كبيرة في مكنسوجورسك في اورال. ومحطة للكهربائية في دنيبرستروي. ومعامل للعربات في لينجراد وخاركوف. ومعامل للسيارات في غوركي. ومعامل للكيمياء في مورسك ابرسينكي. فزاد عدد المعامل عشرة اضعاف ما كانت عليه سنة ١٩١٣. وبلغت معامل الاشتراكيين وحدها ٩٩ ٪ من مجموع المعامل في روسيا. كذلك الانشاءات الزراعية. فقد انشئت ٥٠٠٠ مزرعة، و٢٠٠٠٠٠٠ حقل. وزادت الاطيان الزراعية على ٢١ مليون هكتار. وارتفعت اطيان الاشتراكيين من — ٣ — سنة ١٩٢٨ الى — ٧٥ — سنة ١٩٣٢ وارتفع دخلها من ٤٤ الى ٩٣ وزادت الاجور ٦٧ ٪. وبلغت الاموال في شركات التأمين ثلاثة اضعاف ما كانت

وفي الوقت نفسه يزعم خصوم روسيا أن العمال مسخرون وان الحكومة عاجزة اما عن التقدّم في المعارف فحدث ولا حرج. فقد بلغ التلامذة في المدارس البدائية ٢١٠٠٠٠٠٠ من الجنسين وارتفعت منتجات الصحافة من ٣ الى ٣٦. ومراكز الاسعاف الطبية من ٨٥٨ سنة ١٩٢٨ الى ٥٤٣٠ سنة ١٩٣٣، وارتفع عدد اطبائها من ١٩٠٠٠ الى ٧٦٠٠٠

واليك جدول الانتاج في الممالك العظمى في سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٣

سنة ١٩٢٨	الدول	سنة ١٩٣٣
٧٫٠	فرنسا	٧٫٠
٢٫٤	اليابان	٤٫٧
١١٫٦	المانيا	١١٫٢
٩٫٣	الممالك الانكليزية	١٤٫٩
٤٤٫٨	الولايات المتحدة	٣٤٫٥
٤٫٧٠	روسيا	٣٤٫٥

فأين زعم من يزعم شح الموارد في روسيا . وانتشار الثقافة والمجامات وتحيم شبح الموت ؟ فأنت ترى انها على ضد ما يزعمون

أمام هذا البيان الواضح تغيرت لهجة الرأسماليين . وزالت من عالم الوجود الآمال التي عقدوها بفناء روسيا . وحلّت محلها دعاية اخرى ترمي الى اثارة امم الارض ، على « الخطر الروسي » وليس هنالك من خطر ، ليس الا فتح العيون واثارة الاذهان . فان روسيا غير طامعة في أحد ، وليس لها مطامع استعمارية[1] ، فهي مسالمة نزيهة السابقة . جاء في التيمس الانكليزية بتاريخ سنة ١٩٣١ من مقالة افتتاحية بقلم رئيس تحريرها يقول : اذا اراد العالم التخلّص من الشيوعية فعليه بمقاطعة روسيا مقاطعة تامة . لانها متى تمت اشاءالله الصناعية ، ووراءها مائة وخمسون مليون نفس ، فحينذاك تستمر منتجاتها اسواق الدنيا : ليتأمل القارىء ما هو سبب تخوفهم منها . وقد أقر ستر بلدون سنة ١٩٣١ ان الصناعة الروسية « خطر على العالم الصناعي »

هذا هو كلام خصوم روسيا . فأين الهلاك والموت الزؤام الذي كان يهددها قبل بضعة اعوام . فترى انهُ ليس عجز روسيا هو الذي أقلق كاهل الرأسماليين ، بل جدارتها ومقدرتها ومزاحمتها الرأسماليين مزاحمة شديدة هي التي تقضُّ مضاجعهم ووفرة منتجاتها لا قلتها هي التي تقضُّ في عضدهم لذلك أجمعوا على ابادتها ليصفو لهم الجو في التحكّم بأمم الارض فقد ملأوا المشارق والمغارب صياحاً بأن الأمة التي توحد اقتصادياتها أمة عقيمة عاجزة لا تصلح للبقاء . وواقع الحال انها أصلح للبقاء . والا فلماذا يخشونها وهي لا تخشاهم ويحاربونها وهي لا تحاربهم ؟ هو ذا الدول الصغرى حولها ، لم تطمع بأحد منها ، بل صانتها وعقدت معها عهود عدم الاعتداء[2]

وقالوا ان التسخير ، وعدم دفع الاجور وزيادة ساعات العمل اليومية ، هو السرّ في رخص البضائع الروسيّة ، فالظاهر ان الماليين لم يريدوا ان يميزوا بين استعباد طبقة من الامة قليلة العدد لطوائف العمال جمعاء ، وبين تدريب الأمة عموماً ، دون ما طبقات ، لتعمل في ما هو ملكها الخاص . فالعامل الروسي يعمل في بيته ورزقه ، يعمل ليزيد الثروة القومية التي هو سهم فيها ، لا ليقوّي عضد ارباب المطامع والجشع الذين يستأثرون بالأموال والعقار . وهب ان روسيا بنت مجدها على استعباد العامل فما هي النتيجة ؟ . لقد برهنت تواريخ كل الاجيال على ان التسخير شرّ الامور على شؤون الامم الاقتصادية . فليس الحافز العالين على القيام على روسيا رأفتهم بها ، بل نقمتهم على الذين يحولون دون تمكين مخالبهم من خناقها . فأساس الدعاية ضدها هو حسن ادارتها لا سوء ادارتها ، ونجاح مساعيها الاقتصادية لا خيبتها

(١) المقتطف : أليست الدعاية للثورة العالمية أشد خطراً من المطامع الاستعمارية أو مثلها على الاقل ؟
(٢) المقتطف : ان عهود عدم الاعتداء لا تعني ان الثورة العالمية وكل خطة الدولي الثالث

بناء على ذلك هبّ اولئك السادة ، يحملون على الشيوعية حملة شعواء . يبثون سمّها ويلفونها بألسنة حداد ، وهم يحرّقون الأرض على الذين حالوا دون افتراسهم الحلان . وقد وقع اولئك الفارسة بين شقي المقص . فاما ان يعرجوا عن مزاعمهم ان الشيوعية في حال الافلاس . وإما ان يعدلوا عن النظام من مزاحمتها إياهم في أسواق الدنيا . على ان وراء التقيضين ما هو أعمق من ذلك وهو ذعر الرأسماليين من سقوطهم امام الشيوعية لان اساسها اصحّ علميا، وأثبت نقضاً . وبالامس كان النطاق الصحي مضروباً على الشيوعية خوفاً من افسادها الاخلاق ! واليوم ضرب حولها نطاق الحصر الصناعي يكتنفها . والخلاصة ان المبدأ الرأسمالي أخذ يطأطىء الرأس امام المبدأ الشيوعي . وهو يحاول دفعه بما اوتي من حيلة . بالامس كان المالبون ينادون بجوع الامة الروسية وفقرها ودنوها من الفناء . واليوم الازمة المالية ضاربة في البلاد الرأسمالية في اوربا واميركا . أما الروسيون فلا خوف عليهم فليس فيهم جائع واحد . ولا عامل ليس له عمل ولا ارملة او عطلقة تبيح عرضها لتعيش

جاء في تقرير مدير بنك انكلترا السنوي سنة ١٩٣١ ما نصه : —

اذا لم يقم هنالك من تدبير في عالم المالية فليس امام انكلترا الا الانحدار تدريجاً الى دركات الفقر والهلاك . وليس انكلترا وحدها بل اوربا بأسرها منحدرة في ذلك المنحدر بسبب مزاحمة روسيا وزيادة منتجاتها يدل على ذلك ملايين العمال بدون عمل في فرنسا والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية . هذا سرّ المسألة وبيان فلسفتها . هذي هي السنة الرابعة من السنين الخمس الثانية ، وهي تبشر بالحياة السعيدة والفوز التام فليس ثمة مجال لاتهام الشيوعية بالمجاعة والفناء والاضمحلال

(حاشية) : يقول مقتبس هذي الاقوال ، اذا كانت الاقوال الآنفة كاذبة ، وكانت دعوى خصوم البلشفية صادقة في انها على شفا جرف هار فلماذا يتحد الالمان واليابان ضدها . فان الاقوياء لا يتحدون على الضعيف بل اتحاد الجميع على فرد اعتراف منهم بقوته . ثم لو صح قولهم سنة ١٩١٩ ان روسيا على شفا الهلاك فلماذا لم تهلك الى اليوم بعد ١٨ سنة ؟ ولو انها شريرة فلماذا لم تغر جيرانها الضعفاء بل عاهدتهم معاهدة المسالمة والحب ؟ ولماذا قبلتها كل الدول في سبيل الامم ؟ واذا كانت ضعيفة فلماذا يخشونها ؟ (١)

والمعلوم عندنا ان روسيا اليوم من اقوى دول العالم . والعلم فيها بلغ الذروة العليا ، وكذا الادب والفلسفة ، وهذي المزايا لا تكون في امة تتضوّر جوعاً وقد اشرفت على الهلاك ، وهبني قلت هذا الصبح ليل الحا خزان جبل الاولياء حنا خباز

(١) المقتطف : ثمة فرق بين نجاحها الاقتصادي والصناعي وهذا لا ريب فيه وبين دعايتها الثورية الدولية وهو ما يخشون له . فاذا لم تغر جيرانها بالسيف فانها تسعى الى غزوهم بالسنة الدعاة . وقد اعلنت قبولها في عصبة الامم سياسية ولها حديث طويل